مجلة الحكمة للدراسات التاريخية
Eissn :2600-6405 Issn : 2353-0472
المجلد 11 / العـدد:02 (2023)، ص: 7–28

الرّوحية: نواة استيطانية فرنسية بأطراف التل التونسي 1898-1920

ناجي كشيدة[1]

[1]باحث في التاريخ المعاصر. كلية الآداب والعلوم الانسانية-سوسة

تاريخ الاستلام: 2023/05/13 تاريخ القبول: 23/05/ 2023 تاريخ النشر: 04/06/ 2023

تعرضت منطقة التل التونسي أو الشمال الغربي[1]، بمختلف ڤياداتها، ومنذ السنوات الأولى للاحتلال الفرنسي إلى هجمة استيطانية كبيرة تجلت من خلال تركّز أعداد هامة من المستوطنين الأوروبيين وعلى رأسهم الفرنسيين مقارنة بباقي جهات البلاد التونسية. حظيت هذه الجهة كذلك باهتمام عديد الكتابات الأكاديمية الأجنبية وأيضا التونسية[2] ورغم هذه الحظوة الجغرافية وملاءمتها للوجود الأجنبي أو "التعمير" الأوروبي فإن بعض "الجيوب" ظلت منيعة وغير جاذبة للمستوطنين الذين فضّلوا الاستقرار بمناطق أخرى مجاورة في ظل غياب الحرص الحكومي الرسمي المُشجّع للاستيطان.

---

[1]- **الغربي** (محمد لزهر)، **المجال في المغارب بين التاريخ والذاكرة**. المعهد العالي لتاريخ تونس المعاصر. جامعة منوبة. 2015، ص 75

[2]- **انظر على سبيل المثال:**

- الهلالي (عبد الحميد)، **جندوبة 1881- 1956: علاقة الحركة الوطنيّة بالأرياف**. منّوبة. منشورات المعهد لتاريخ الحركة الوطنيّة ، 2009.

- الطيب (علي)، **الملكية العقّارية واستراتيجيات الاستيطان الاستعماري الفرنسي بجهة مجاز الباب-تستور من 1860 إلى 1936**. تونس. منشورات المعهد العالي لتاريخ الحركة الوطنية. 2013

- بن عزيزة (عزيز)،**الأوضاع العقارية بجهة جندوبة**، شهادة الكفاءة في البحث، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 1981.

- الفرجاني (خميس)، **الهياكل العقارية وعلاقات الإنتاج بجهة باجة (1881-1930)**، شهادة التعمق في البحث، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 1990-1991

- الفرشيشي (عبد الستار)، **الاستعمار الزراعي بجهة طبربة من 1881-1914**، شهادة الدراسات المعمقة في التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 2002-2003.

جسّدت أرياف المراقبة المدنية بمكثر مثالا عن هذه المناطق التي بقي الاستيطان بها ضعيفا بالرغم من تبنيّ سلطات الاحتلال لسياسة الاستعمار الرسمي منذ 1892 ووضعها لمعظم المجال الفلاحي التونسي تحت تصرّف المستوطنين الذين تجاوزوا المناطق الشمالية الخصبة وسيطروا على الأراضي السيّالية بصفاقس وتركزوا بجهة المكناسي منذ مطلع القرن العشرين وأيضا بظهير القيروان بكل من حفّوز (بيشون Pichon) والعلم قرب السبيخة وغيرها.

سنحاول في هذا المقال الكشف عن جذور نشأة أو تشكّل نواة استيطانية بمنطقة الروحية بقيادة أولاد عيّار منذ 1898 التي سرعان ما تحوّلت إلى مركز استيطاني فرنسي مكتمل الملامح مع مطلع العشرية الثانية من القرن العشرين ونهاية الحرب العالمية الأولى. كما سنهتم بوسائل الضغط وطرق التواصل التي اعتمدها مستوطنو هذا المركز لتحقيق أهدافهم وخدمة مصالحهم تحت مُسمّى انجاز وانجاح المشروع الاستيطاني الفرنسي.

اعتمدنا لإنجاز هذا البحث على المصادر الأرشيفية وهي أساسا رصيد الحماية المحفوظ بمركز الأرشيف الدبلوماسي بمدينة نانت بالإضافة للكتابات الفرنسية التي اهتمت بالشأن الاستيطاني الفرنسي بتونس والمعاصرة له كذلك.

1/ الحضور الأوروبي بالروحية وتدعيم الاستيطان بأطراف التل العالي

بُعثت المراقبة المدنية بمكثر سنة 1887 وكانت مدينة مكثر مركزها الإداري[3] وتقلّد النقيب بورديه[4] منصب أوّل مراقب مدني بالجهة[5]. وللتذكير فقد صدر الأمر المنظّم للمراقبات المدنية بتونس في 14 أكتوبر 1884 وتندرج عملية بعث أو تركيز

---

[3]- بتبنّي التقسيم الإداري الجديد القائم على الولايات أصبحت سليانة منذ 1974 مركزا للولاية ومكثر معتمدية تابعة لها.

[4]- عسكري برتبة نقيب (Commandant) تابع للفوج الرابع للتيرايور

[5]- الطيب (علي)، **مجال جندوبة ومكثر-سليانة التحوّلات الاجتماعية والاقتصادية (1860-1956)** المعهد العالي لتاريخ تونس المعاصر. جامعة منوبة 2019، ص105.

المزيد من المراقبات في سياق تنظيم المجال الجغرافي والترابي بتونس وكذلك لبسط الأمن وحسن مراقبة السكّان من قبل الإداريين المدنيين وعلى رأسهم المقيم العام[6]، مقابل تقليص مجال تدخّل العسكريين من خلال مضاعفة أعداد المراقبة بين 1884 و1887 وتحجيم مساحة التراب الخاضع للجيش والمعروف بالتراب العسكري. كما اعتبرت عملية تركيز المراقبات المدنية بتونس عملية صعبة وُصفت "بالمخاض العسير"[7] وذلك بسبب الصّراع بين السلطات المدنية مُمثّلة في المقيم العام بول كامبون، من جهة، والمدعوم من الأطراف السياسيّة بباريس والجنرال بولانجي قائد جيش الاحتلال من جهة أخرى.

بدأت العملية الاستيطانية بهذه الجهة من المراقبة المدنية بمكثر منذ 1894-1895 من خلال مطالبة بعض الموظفين والإداريين الفرنسيين هناك بمنحهم مقاسم فلاحية بهنشير الرّوحية[8]، خصوصا مع تبلور مشكل نُدرة المخزون العقّاري بالمناطق الخصبة للتل والشمال مثل سوق الأربعاء وسوق الخميس وباجة وغيرها. تكرّست هذه الرغبة بعد استيلاء إدارة الفلاحة والتجارة والاستعمار على هنشير الرّوحية سنة 1898 وهو نفس التاريخ التي أصبحت فيها جمعية الأوقاف مُجبرة على توفير مساحة ألفيْ هكتار من مخزونها العقاري لفائدة الاستيطان ووضعها على ذمّة الإدارات الاستعمارية وتنشيط الاستيطان خصوصا أمام توافد المزيد من المستوطنين سواء من المتروبول أو من الجزائر وكذلك من المجال المتوسطي وهم أساسا من الايطاليين.

---

[6] - Fitoussi (F), L'état tunisien. Tunis. Imprimerie Générale. 1901, p185.

[7] - Mouilleau (Elisabeth), Fonctionnaires de la République et artisans de l'Empire: Le cas des Contrôleurs Civils en Tunisie (1881-1956). Paris. Le Harmattan. 2000, p51.

[8] - Monchicourt (Charles), La Région du Haut Tell en Tunisie (Le Kef, Téboursouk, Mactar, Thala) Essai de Monographie Géographique. Paris, Librairie Armand Colin, 1913, p 426.

فُتح مجال هذه الجهة من المراقبة المدنية بمكثر أمام الاستيطان الفرنسي في إطار سياسة الاستيطان الرسمي إثر وقوف الإداريين الاستعماريين على قصور تجربة الاستعمار الحر، طوال العشرية الأولى للاحتلال، والتي لم تخدم العنصر الفرنسي وخلقت تفوّقا بشريا ايطاليا بعديد المراكز الاستيطانية. كما هدفت الإدارة الاستعمارية إلى وضع يدها على ما أمكن من المجال الزراعي والصالح للاستيطان خارج المناطق الشمالية الخصبة.

نجحت إدارة الفلاحة في تركيز بعض المستوطنين بعد القيام بالتقسيم وتوفير المتطلبات الأوليّة والضّرورية لنجاح العملية الاستيطانية. كما استفاد المستوطنون- والذين كانوا في الغالب إن لم نقل جلّهم فرنسيين- من وفرة الأراضي وانغمسوا في انجاح مواسمهم الزراعية القائمة أساسا على زراعة الحبوب مستغلّين مياه الأودية التي تمرّ بالقرب من ملكياتهم خاصة وأنّ أجزاء كبيرة من هنشير الرّوحية مثّلت مصبّا ونقطة التقاء لكل من وادي الببّوش ووادي السڤيفة كما تبيّن ذلك الخريطة الموالية[9].

[9]- مركز الأرشيف الدبلوماسي بنانت (أ. د. نانت). رصيد الحماية. صندوق 1376-1677: المركز العمراني بالروحية 1908-1913.

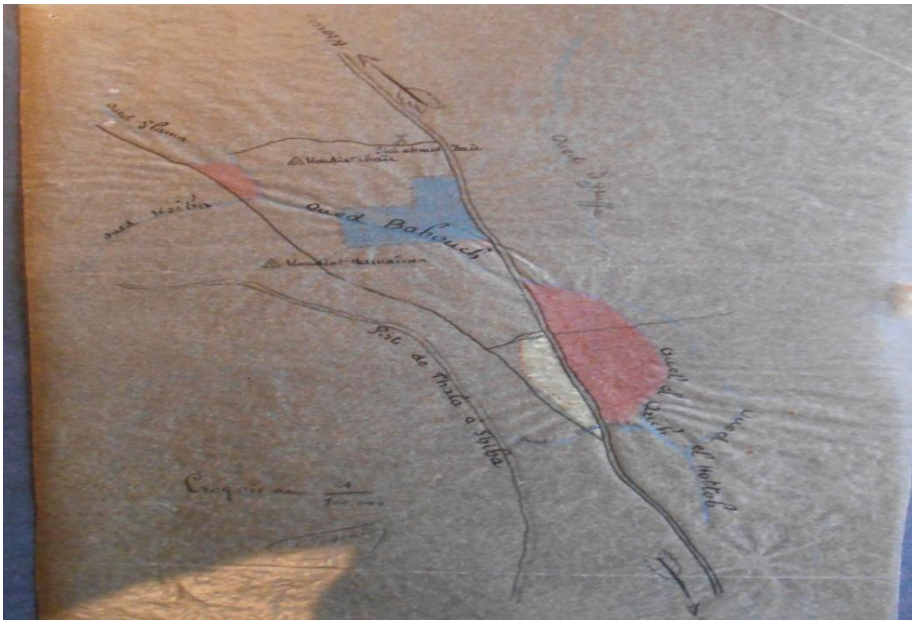

لا يمكن الحديث عن ضراوة الهجمة الاستيطانيّة وعن عمليّات التوسّع والتمدّد الجغرافي الذي عرفته ملكيّات الفرنسيّين وتطوّر أعداد المراكز والقرى الاستعماريّة، دون التطرّق إلى فاعليّة لجان المراكز (Commissions des centres)، التي نُظّم عملها من قبل هيأة خاصّة تعرف بالهيأة الاستشاريّة للاستيطان المحدثة بموجب قرار 16 ديسمبر 1903[10]. لعبت لجان المراكز الاستيطانيّة أدوارا متعدّدة تصبُّ في خانة تسهيل عمليّتيْ الاستيلاء العقّاري وتنشيط الاستيطان، فقد أوكل لها ولباقي الهياكل الاستعمارية تحديد المناطق الفلاحيّة الملائمة للنّشاط الفلاحي الأوروبّي أو قرب المراكز الاستيطانيّة المزمع بعثها وتسهيل تركّز المستوطنين الفرنسيّين[11] دون صعوبات عقاريّة.

[10]- **ن. م**. ص 1258: مشروع نص لتحوير أمر 16 ديسمبر 1903

[11]- الهلالي (عبد الحميد)، **جندوبة 1881- 1956**...، **م. س**، ص 103.

بعثت اللّجنة المكلّفة بدراسة مشروع إنشاء المركز الاستيطاني بالرّوحيّة بتونس بموجب مراسلة المقيم العامّ ألابتيت (1906-1918) بتاريخ 10 فيفري 1909، وتكوّنت بصفة استثنائيّة من:

- المراقب المدني بتالة ڤامي (Gamet) والمراقب المدني بمكثر باري (Barue)[12].
- مندوب القسم الزّراعي بالمنطقة المستوطن أكوافيفا (Acquaviva)
- ڤايد أولاد عيّار وڤايد ماجر.

ترجع هذه الرّئاسة المزدوجة إلى ضبابيّة بعض المسائل العقاريّة ما جعل من هذا المركز محلّ تداخل بين المراقبتين (نفس الشّيء للقيّاد).

- طبيب الاستعمار بتالة.
- مسؤول قسم الجسور والطّرقات: ديمارشا (Dumarchat).
- متفقّد أملاك الدّولة: شافيني (Chavigny).

تُفسّر عملية تشريك طبيب الاستعمار كعنصر قارّ وفاعل صلب هذه اللّجان من زاوية حرص الإدارة الاستعماريّة سواء بالمتروبول أو بتونس على سلامة المستوطنين وحمايتهم من الأوبئة والأمراض القاتلة[13] ولعلّ في ذلك حرص حكوميّ رسمي على إبراز صورة فرنسا في شكل الحامي والمدافع الأوّل على مصالح الأوروبيّين لإنجاح العمليّة الاستيطانيّة.

---

[12]- **بارو (ڤاسطون هنري جون ريني)**: كانت أولى تجربة له بملحق جربة قبل أن يقع تعيينه بمراقبة مكثر. عمل على دفع الاستيطان بهذه الجهة من خلال توسعة بعض المراكز الاستيطانية. شجّع مستوطني الروحية على إحداث نقابة للري ونقابة للمستوطنين ودفع نحو انشاء مركز حضري بسليانة. **انظر**:

-Lambert (Paul), Dictionnaire illustré de la Tunisie: choses et gens de Tunisie. C Saliba Ainé, Tunis 1912, p50

[13]- **لمزيد المعلومات حول هذا الموضوع انظر على سبيل المثال :**

-Bouhdiba (Sofiane). Médecin de Bled: sur les pas du médecin de colonie dans le Protectorat tunisien (1881-1956). Paris. L'Harmattan, 2013.

- الونيسي (عبد الرحمان)، **الأوضاع الصحية بتونس في عهد الحماية 1881-1956**. أطروحة دكتوراه في التاريخ المعاصر. كليّة العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس. 2002- 2003.

الرّوحية: نواة استيطانية فرنسية بأطراف التل التونسي 1898-1920

أشارت المصادر الرسمية المهتمة بالشأن الاستيطاني بتونس إلى وجود نواة للاستيطان بهنشير الروحية[14] تتكوّن من ثلاثة مستوطنين فرنسيين يتحوّزون على مساحة 34 هكتارا إلى جانب أوروبيُن اثنين ليبلغ إجمالي المساحات المملوكة للمستوطنين 104 هكتارا مع مطلع القرن العشرين وهي تمثّل نسبة صغيرة من المساحات الممتدة بهذه المراقبة المدنية[15] التي تُعدّ واعدة للاستيطان وجاذبة للمستوطنين. تطوّر عدد الفرنسيين بهذا المركز ليبلغ عشرة مستوطنين مع نهاية 1911[16] ما يعني توسّع المساحات المملوكة لفائدتهم وتوافد المزيد منهم على هذه الجهة التي تتوفّر على مساحات شاسعة. تواصل توافد المستوطنين الفرنسيين على هذا المركز طوال الفترة التي سبقت الحرب العالمية الأولى وحتى بعدها وذلك ما سنوضّحه من خلال بعض الأمثلة بالجدول الموالي.

قائمة بأسماء بعض مستوطني مركز الروحية[17]

المستوطن	تاريخ ومكان الولادة	تاريخ الاستقرار	ملاحظات
كليمون بونانفون (Clément Bonnenfant)	سنة1867 بمدينة بزييه (Béziers) بإقليم الهيرول جنوب فرنسا	سنة 1904 بعد مسيرة مهنية بعديد الجهات والمراكز الاستيطانية.	تولى لسنوات عديدة منصب رئيس نقابة الري. غادر مركز الروحية سنة 1927.

[14] -Direction de l'Agriculture, du commerce et de la colonisation, Rapport adressé à Monsieur le Résident Général sur les propriétés possédées par les européens en Tunisie au 31décembre 1898. Tunis. Imprimerie Rapide, 1900, p 4.

[15] - Ibid, p 6.

[16]- أ. د. نانت. ص 1376-1377: خريطة مرفقة بمراسلة مدير الفلاحة والتجارة والاستعمار لمفوّض الإقامة العامة بتونس بتاريخ 21 ديسمبر 1911 بها أسماء للمستوطنين المستقرين بمركز الروحية.

[17] - Belles Illustrations, Livre d'Or de l'Agriculture. Tunis. Imprimerie La Porte. 1940, p156-157.

بيار بونانفون (Pierre Bonnenfant)	سنة 1896 بتونس		أدار رفقة والده ضيعة "الروحية". جُنّد في الحرب الكبرى وتحصّل على ميدالية عسكرية وصليب الحرب.
فيليب أودو (Philippe Oudot)	1877 بإقليم السّاون العالي (Haute-Saône)	بمكثر منذ1904 ثمّ بالروحية	جنّد في الحرب الكبرى.
برنار أودو (Bernard Oudot)	سنة 1912 بإقليم السّاون العالي	استقر بالروحية سنة 1913	
هنري أودو (Henri Oudot)	سنة 1896 بإقليم السّاون العالي	استوطن بالروحية سنة 1927	جّنّد في الحرب الكبرى

تميزت الحياة الاستيطانية داخل هذه الضيعات بتعايش أكثر من جيل من المستوطنين وبغلبة العمل العائلي كما هو الشأن مع بيار بونانفون الذي ساعد والده كليمون قبل أن يصبح بدوره مستوطنا ونفس الوضعية مع برنار أودو الذي استوطن بالروحية سنة 1912 وكذلك أخوه هنري. تبرز مثل هذه الوضعيات رغبة المستوطنين الأوائل في الاستقرار لمدة طويلة في ظل تأقلمهم مع الجهة ومناخها إلى جانب رغبتهم في الحفاظ على أراضيهم واستغلالها المباشر دون اللجوء الى الكراء والتسويغ لغير الفرنسيين كما جرت العادة طيلة فترة الاستعمار الرسمي.

يبدو أن هذه العمليات قد تمّت تحت مراقبة السلطات الاستعمارية التي رحّبت بمثل هذه التحوّلات التي من شأنها تدعيم الحضور البشري الفرنسي في فترة مازال فيها التفوق البشري الإيطالي مثيرا للمخاوف. كما ارتأت من خلالها تلافي عديد النقائص التي ميّزت فترة الاستعمار الحر المُطبّقة بتونس بين 1881-1892. فقد تجلّت الغاية "الوطنية" خلال تلك الفترة من خلال تشجيع الهجرة من المتروبول وتكريس الوجود البشري الفرنسي بالأرياف وهو ما اعتبر أولوية عند كل الأجهزة الاستعمارية[18].

من ميزات الاستيطان بمركز الروحية، وكما ورد بالجدول، بروز جيل جديد من المستوطنين يمكن اعتباره "الجيل الثاني" والذي سيواصل المسيرة الاستيطانية للمستوطنين-"الأوائل" أو المُؤسّسين. تعتبر هذه العملية ومن منظور رسمي فرنسي نجاحا لمجهود الإدارة الاستعمارية لتأبيد الحضور والتفوّق الفرنسي[19] بذلك المجال وخلق أجيال متشبّثة بالأرض.

نستشفّ كذلك هيمنة مطلقة للمستوطنين الفرنسيين دون سواهم بهذا المركز الاستيطاني والملفت للانتباه اعتمادهم للاستغلال المباشر لضيعاتهم ما يعني الاستقرار بهذا المركز وما رافق ذلك من تشييد للمنازل وبناء الإسطبلات وما يلزم من البناءات لحفظ الآلات والمنتوج الذي تكوّن أساسا من الحبوب. وقد أشار شارل مانشكور- الذي تولى منصب مراقب مدني بمكثر بين نوفمبر 1898 وفيفري

[18] - Millet (René), La Colonisation française en Tunisie: Conférence faite à Chalon-Sur-Marne et à Reims le 21 et 22 octobre 1899. Tunis. Imprimerie Rapide, 1899, p 15.

[19]- من الدراسات الفرنسية التي شجعت على تكثيف الحضور الفرنسي بالأرياف التونسية يمكن ذكر:

- Gaston (Loth) : Le peuplement italien en Tunisie. Paris. Librairie Armand Colin, 1905. : La Tunisie et l'œuvre du protectorat français. Tunis, 1906.

-Dr (Zolla) : La colonisation agricole en Tunisie. Paris. Imprimerie de la cour d'appel, 1899.

-Riban (Charles) : Causeries sur la Tunisie agricole. Tunis. Imprimerie rapide, 1894.

1901- إلى بروز منازل المستوطنين قرب الطريق المتجهة لمدينة القصور شمال مركز الروحية[20] ما يعني بروز نواة حضرية في منطقة اعتبرت منفّرة للاستيطان والمستوطنين خلال السنوات الأولى للاحتلال. ومن المنطقي أن تجذب هذه المبادرات، التي نالت استحسان الإدارة الفرنسية، بعض السكّان الأهالي الباحثين عن العمل في ضيعات المستوطنين من أبناء قبيلة أولاد عيّار وكذلك ماجر المجاورتين بعد فترة من التخوّف و"نفور" العنصر المحلي. ستُسهم المبادرات بهذا المركز أو غيره من القرى والمراكز الاستيطانية في خلق مجموعات قبليّة مستقرّة (sédentaire) كانت تركن إلى التنقّل والترحال بحثا عن المرعى لقطعانها خاصة في سنوات الجفاف وستعاضد جهود المستوطنين، ولو بطريقة غير مباشرة، في تحقيق نجاحاتهم وكذلك في تمرير مطالبهم بدعوى التطوّر السكّاني والعمراني[21] لمركز الرّوحية.

نشير في هذا السياق إلى سعي سلطات الاحتلال ومنذ فترة إلى تقليص عمليات الترحال باتجاه التل الحبوبي أو" فريقا" حفاظا على الأمن وحمايةً لممتلكات المستوطنين من تجاوزات الرّعاة والرعي الجائر لقطعانهم، هدفت كذلك الإدارة الفرنسية إلى خلق فئات من "الأهالي" المستقرين والموالين للسلطات الاستعمارية.

ستعمل هذه المجموعة من المستوطنين بمرور الوقت على تحسين أوضاع مركز الروحية وذلك من خلال اتباع سياسة الضغط على الهياكل الاستعمارية

[20] -Monchicourt (Charles), La Région du Haut Tell…, op cit, p 429.

[21]- أ. د. نانت، ص 1376-1377 مراسلة مدير الفلاحة والتجارة والاستعمار للإقامة العامة بتاريخ 6 ديسمبر 1912 ضمّنها موافقته على التفويت في قطعة أرض على ذمة أملاك الدّولة لصالح مستوطني الروحية إلى مركز عمراني.

الرسمية وهي في الواقع وسيلة مجدية اتبعها الأوروبيون المستقرّون بعديد المراكز والقرى الاستيطانية بتونس[22].

2/مستوطنو مركز الرّوحية: دعامة للحضور الفرنسي ونواة ضغط

نجح مستوطنو الرّوحية في إدارة المسألة المائية، التي تبقى من معضلات العمل الفلاحي، وتنظيم عمليّة الري تجنبا لظاهرة الاحتكار والابتعاد عن المشاكل التي قد تندلع بين هذا الطّرف أو ذاك في بلاد تميّزت بتذبذب التساقطات ما تسبّب في انهيار الزراعات بفعل الجفاف. أمكن لهم تكوين نقابة للري (Syndicat d'irrigation) تولّى رئاستها في سنواتها الأولى المستوطن فكتور اسناك[23] (Victor Isnack). وقد لعب هذا الهيكل الخاص دور المدافع عنهم لتبليغ مشاغلهم للسّلطات بالمراقبة المدنية بمكثر أو لباقي الهياكل المهتمة بالشّأن الاستيطاني (إدارة الفلاحة والغرفة الفلاحية بالشمال) وكذلك السلطات المركزية بتونس ممثّلة في الإقامة العامة.

أصبحت الروحية، بالرغم من عديد النقائص، مركزا استيطانيا جاذبا للمستوطنين الفرنسيين من جهة ونقطة تركّز "للأهالي" من القبائل والعروش القاطنين غير بعيد عن الضيعات الاستعمارية ما يعني تحوّله لنواة عمرانية وجب منحها العناية والاهتمام الرسمي مثل باقي المراكز والقرى الاستيطانية المنتشرة بمنطقة التل. نشير كذلك إلى نجاح الادارة الفرنسية في استمالة العروش وفروع قبائل الجهة وتشجيعها على الاستقرار لكونها تمثّل خزّانا بشريا يمكن الاعتماد عليه لإنجاح المواسم الفلاحية وخصوصا منها الحصاد.

---

[22]- ن. م. رصيد الحماية تونس، ص A 889. رسالة من مستوطني المكناسي بتاريخ 28 ديسمبر

- ن. م، ص 1/ 1/ TU 7. عريضة ممضاة من قبل مستوطني بنزرت بتاريخ 15 جانفي 1891

[23]- من مواليد 3 جويلية 1870 بإقليم الموز (Meuse) له تكوين عسكري إلى جانب تجربة إدارية في فرنسا قبل الاستقرار بالروحية أين تملّك ضيعات: الألزاس واللوران ولاتولاز.

لم تحجبُ كل هذه المؤشرات الدّالة على السير العادي لمركز الرّوحية عديد النّقائص التي عانى منها المستوطنون وعملوا على تجاوزها وايجاد الحلول لها واضافة خدمات جديدة للمركز. فقد عبّروا في اجتماعهم الذي عقدوه بالروحية بتاريخ 3 ماي 1908[24] عن تحفظهم إثر تركيز مركز للبريد بمدينة سبيبة بالمراقبة المدنية بتالة التي ينعدم فيها الوجود الاستيطاني مقارنة بمركز الروحية الذي يحتوي حسب رأيهم على كل مقوّمات النجاح والذي بإمكانه التحوّل إلى نقطة جذب لعديد المستوطنين. فاقترحوا تسهيلا للتواصل مع بقية المراكز –وكحلّ بديل ومؤقّت- تركيز وكالة بريديّة بعد أن أبدى المستوطن ريبول(Reboul) استعداده لاستقبال الرسائل وتوزيعها على الباقي المستوطنين.

أشاروا في هذا السياق إلى وجود خط تلغراف قرب الروحية يربط مدينتيْ سبيبة والقصور وقد دعّم المراقب المدني بمكثر هذه الفكرة التي ستمكنّ من مراقبة هذا المجال الجغرافي وتسهيل عملية تبادل المعلومات في صورة وجود خطر أو تهديد. وقد راسل هذا الإداري الإقامة العامة بتاريخ 6 جويلية 1908 ناقلا تشكيات ومطالب مستوطني مركز الرّوحية وطالب السلطات المركزية بضرورة معاينة الأوضاع على عين المكان مع التنصيص على ضرورة إحداث سوق أسبوعيّة به والإسراع في القيام بأشغال التخطيط العمراني وتوسعة المقاسم الفلاحية. يبدو واضحا تبنيّ السلطات الفرنسية "الجهوية" بالمراقبة المدنية بمكثر لمعظم مطالب المستوطنين رغبة منها في خلق ديناميكية بأرياف الجهة والتي لاحت ضعيفة مقارنة بعديد الجهات المجاورة في فترة انتشر فيها الاستيطان بأرياف المراقبة المدنية بالقيروان وكذلك حول صفاقس وغيرها من الجهات الواقعة بمناطق أقل حظوة جغرافية من أرياف مراقبة مكثر. كما لاح الجانب الأمني حاضرا وبقوة في هذه

[24]- الأرشيف الدبلوماسي نانت. ص 1376-1377 مطالب مستوطني الروحية في اجتماعهم بتاريخ 3 ماي 1908.

المسألة خصوصا مع وجود عديد الفروع القبلية من أولاد عيّار ومجاورتها لقبيلة جلاص وكذلك الفراشيش الذين هاجموا رموز ومواقع الحضور الاستيطاني قرب تالة في ربيع 1906[25].

يبدو أنّ عملية الضغط التي مارسها المستوطنون وحجم الدعم المُقدّم من طرف المراقب قد أتت أُكلها، إذ وعد مدير ديوان البريد والتلغراف[26] بتوجيه عون بريد متنقّل إلى ضيعات المستوطنين لتبليغ الرسائل وغيرها من المراسلات البريدية. كما أبدى موافقته على تأسيس وكالة بريدية (Agence postale) وذلك بعد التشاور مع باقي الأجهزة المتدخلة في العملية الاستيطانية وطمأن مستوطني الروحية بأن مركز بريد سبيبة يُغطّي كذلك ضيعاتهم وما جاورها من المناطق. لا تخفى كذلك مساندة غرفة الفلاحة بالشمال لمثل هذه المطالب التي يراها كبار المستوطنين شرعية وضرورية، وللتذكير فقد كان المستوطن أكوافيفا[27] من بين أعضاء لجنة مركز الروحية وهو من غلاة الاستيطان بتونس وعضو مُؤثر صلب غرفة الفلاحة بالشمال وله مقالات بصحف المستوطنين ومُقرّب من المتصلّب فكتور دي كارنيار.

أبدت كذلك إدارة الفلاحة والتجارة والاستعمار، مُمثّلة في قسم أملاك الدولة، موافقتها على طلب مستوطني مركز الروحية المتمثّل في تخصيص مداخيل كراء قطعة أرض مخصّصة للرعي لفائدة خزينة نقابة الري وهو ما يعني توفير المزيد من الإمكانيات المادية لتدعيم شبكات الري وتمديدها بكل أريحيّة. لكنها أعلمتهم وبمقابل ذلك بأن مقاسمهم الفلاحية ليست صغيرة الحجم ولا تنطبق

---

[25]- التيمومي (الهادي)، **انتفاضات الفلاّحين في تاريخ تونس المعاصر**. تونس. المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون "بيت الحكمة"، 1993

[26]- أ. د. نانت. **م. س:** مراسلة مدير ديوان البريد والتلغراف بتاريخ 16 أوت 1908..

[27]- **ن. م:** راسل المستوطن أكوافيفا الإقامة العامة بتاريخ 23 جانفي 1912 وقدّم عريضة ممضاة من قبل عشرة مستوطنين من مركز الروحية مطالبا كذلك بضرورة تحسين أوضاعهم.

عليها قاعدة الخمسين هكتارا الموجهة لصغار المستوطنين والرّامية لتشجيع الاستيطان بتونس[28]، كما ذكّرتهم بانتفاع ملكياتهم بمياه الأودية وهو ما انعكس بالإيجاب على المحاصيل التي كانت جيّدة. تأتي هذه الإجابة "السلبية" بعد مطالبتهم ببعض الامتيازات ومنها توسعة ملكياتهم وهو ما يدلّ على تملّكهم لمساحات هامة بالمنطقة.

مثلّت كذلك نقابة الرّي بهذا المركز الإطار الملائم لصياغة وتقديم مطالب المستوطنين في عديد المناسبات. فقد عقدوا جلسة بتاريخ 17 ديسمبر1911[29] برئاسة المستوطن اسناك ناقشوا خلالها بعض النقاط المتّصلة بالوضع الاستيطاني بمركزهم ومن بينها؛ ضرورة إكمال مشروع مد قنوات الري الذي بدأ بإنجازه مهندس مصلحة الجسور بسوسة والذي تطرّق فيه كذلك إلى مسألة تحسين المسالك الفلاحية بكامل الجهة تيسيرا للتنقل وتسويق المنتوجات الفلاحية. كما أعادوا مطالبة السلطات بضرورة إرجاع انعقاد السوق الأسبوعية التي وقع تغيير موقع انعقادها سابقا بعد ملاحظة ضعف مردوديتها[30] مشيرين إلى توفّر منطقتهم على كل مقومات النجاح وملاءمة الظروف الصحية التي نوّهت بها سابقا لجنة المركز. وبمرور الوقت وتبلور ملامح الحياة الاقتصادية بهذا المركز تطوّرت المبادلات والنشّاط[31] بهذه السوق وأصبحت جاذبة للتجار والمستوطنين والأهالي كذلك.

---

[28] - Poublon (G), Projet de petite colonisation et création de centres agricoles en Tunisie. Tunis. Imprimerie Rapide. 1901, p6.

[29]- أ. د. نانت. **م. س:** اجتماع لمستوطني الروحية بتاريخ 17 ديسمبر 1911

[30]- الطيب (علي)، **مجال جندوبة ومكثر-سليانة**... م. س، ص 109

[31]- **ن. م**، ص 178

جدّدوا كذلك مطالبتهم بضرورة إنشاء مركز عمراني بالمنطقة وهي في الواقع من أولى المطالب[32] التي نادوا بتطبيقها على أرض الواقع خصوصا مع اللّيونة التي أبدتها الإدارة الاستعمارية تجاههم.

يبدو أن مستوطني الروحية قد استفادوا من الظرفية الاستعمارية التي خوّلت لهم مواصلة الضغط وتجديد مطالبهم بالموازاة مع ذلك أبدت الإدارة الاستعمارية موافقتها على خطواتهم التي ضمنت لها حضورا بشريا فرنسيا بأرياف تونس وذلك في توجّه رسمي مشجّع للهجرة وللاستيطان إلى حدود اندلاع الحرب الكبرى.

3/ ظرفية الحرب العالمية الأولى

انطلقت السلطات الاستعمارية مبكّرا في اتخاذ جملة من التّدابير والاحتياطات لحماية القرى والمراكز الاستيطانية من هجومات محلية محتملة قد تقوم بها القبائل والعروش أو كذلك هجوم خارجي وكانت الغاية تأمين المستوطنين الفرنسيين المستقرّين في الأرياف[33].

شملت هذه الإجراءات المركز الاستيطاني بالرّوحية كغيره من المراكز وفي هذا السياق حدّد المراقب المدني بمكثر في مراسلة للإقامة العامة بتاريخ 17 جويلية 1913[34] جملة الخطوات والتدابير المتخذة لفائدة المستوطنين هناك. فقد حلّت لجنة مختصّة بهذا المركز بهدف إحصاء وحصر الحضور البشري الأوروبي وخلُصت إلى وجود 12 مستوطنا فرنسيا صالحين للتجنيد قادرين على حمل السلاح استُثني من بينهم أربعة لا يمكن تجنيدهم لعدة أسباب كتجاوز

---

[32]- أ. د. نانت. م. س: عريضة مستوطني الرّوحية موجّهة للمقيم العام بتاريخ 5 جانفي 1902.

[33] -Kechida (Neji),« Les Campagnes tunisiennes et l'enjeu de la sécurité des colons durant la Grande Guerre» in Rawafid, nº 22-23-24, 2017-2018-2019, pp 87-105.

[34] - ن. م، رصيد الحماية. صندوق 1062، ملف: الدفاع عن المراكز الاستيطانية 1911-1913؛ مراسلة المراقب المدني بمكثر للإقامة العامة بتاريخ 17 جويلية 1913 حول تأمين المراكز الاستيطانية بالجهة.

السن المسموح بها أو وجود مانع جسدي كالعاهة وغير ذلك وبالتالي سيقع الاعتماد عليهم كحرّاس على عين المكان لحماية الممتلكات. أُحصي كذلك تواجد ثلاثة ايطاليين، واجمالا أكّدت على استقرار 27 أوروبيا وذلك باحتساب النساء والأطفال وقد يكون بعض الخدم بالمنازل والضيعات.

وقد كشف هذا الإداري عن المعطيات والخصوصيّات الأمنية العامة ذات الطابع الدفاعي التي سيقع اتخاذها لفائدة هذا المركز وكانت كما يلي:

التدابير المتخذة لتأمين المركز الاستيطاني بالروحية[35]

مركز الدفاع	ضيعة المستوطن اسناك
مركز القيادة العسكرية	تونس
أقرب مركز أمني	سبيبة ومكثر والقصور
أقرب مكتب تلغراف	سبيبة ومكثر والقصور
أقرب محطة للقطار	القصور
الجالية	
فرنسيين من الحاملين للسلاح	12
فرنسيين لا يمكن تجنيدهم	04
نساء وأطفال فرنسيين	27
رعايا انڤليز (مالطيين)	لا يوجد
ايطاليين	3
جنسيات أخرى	لا يوجد
تسليح	
أعوان شرطة	لا يوجد
المسؤول عن الدفاع	رئيس نقابة المستوطنين
عدد البنادق	12

[35] - ن. م.

وقع كذلك الاختيار على ضيعة المستوطن اسناك كمركز دفاعي في انتظار بناء مركز للجندرمة أو للشرطة. نشير في هذا السياق إلى التفكير في توزيع الأسلحة النارية على المستوطنين لتسليحهم وخلق نواة لما يُعرف بالدفاع الذاتي في انتظار وصول التعزيزات العسكرية والأمنية من ثكناتها ومراكزها المجاورة. كما مثّل افتقار المركز لتواجد أمني دائم نقطة طالب بها المستوطنون منذ سنوات وراسلوا كما أسلفنا الذكر مراكز القرار سواء بمكثر أو بتونس ولكن الردّ كان سلبيا.

بيد أنّ الظرفية الاستثنائية ستجبر الإدارة الإستعمارية على التفكير الجدي في ذلك خاصّة وأن مركز الروحية متواجد في بلاد البارود[36] ومحاط بقبائل وعروش أولاد عيّار وماجر والفراشيش كما وصفه الكاتب والإداري الفرنسي شارل مانشكور الذي زار المنطقة "بالمركز المعزول"[37]. ينمّ هذا التوصيف الدّقيق عن إلمام مانشكور[38] بخاصيات المنطقة عامّة والمركز بصفة خاصّة، فالحالة السيئة للطرقات تعرقل التدخّل السريع خاصة في فصل الأمطار إلى جانب افتقاره لمحطة للقطار يمكن الاستعانة بخدماتها لإنقاذ المستوطنين أو نقل الجنود والجندرمة للنّجدة. نشير في هذا السّياق الى وجود محطة للقطار بمدينة القصور بالمراقبة المدنية بالكاف وشمال مركز الرّوحية والتي تبعد حوالي الأربعين كيلومترا.

لم تقتصر هذه الاجراءات والتدابير على هذا المركز فحسب، بل وقع تعميمها على كلّ المراكز والقرى الاستيطانية بهذه المراقبة المدنية، فقد حملت المراسلة كذلك نفس الملاحظات والمعلومات عن مراكز مكثر وكسرى وبرڤو وجبل بلّوطة وسليانة. وبالرغم من ضعف التواجد الأوروبي بهذه المراقبة الواقعة في

---

[36] - Monchicourt (Charles), La Région du Haut Tell…, op cit, p 353

[37] -Monchicourt (Charles), Rodd Balek: La Tunisie après la guerre, problèmes politiques. Paris. Publication du Comité de l'Afrique Française. 1920-1922, p231.

[38]- الصخراوي (لزهر)، مخطّطو السياسة الاستعمارية الفرنسية بتونس من برنار روا إلى شارل سومانيه (1881-1956). تونس. كلية العلوم الانسانية والاجتماعية بتونس ودار المسيرة للنشر والتوزيع. 2018.

منطقة التل التونسي فإن مركز الروحية يعتبر من أهم التجمعات الاستيطانية بالمراقبة المدنية مكثر؛ إذ حلّ ثانيا بعد مدينة مكثر، المركز الإداري، الذي أُحصي به 22 فرنسيا ومتقدمّا كذلك عن باقي المراكز والمداشر الأخرى بالرغم من بعده عن الشبكة الحديدية ومراكز التلغراف والبريد.

نُذكّر بأن السلطات الاستعمارية الفرنسية حاولت الإحاطة بالمستوطنين الأوروبيين المستقرين بكامل المجال التونسي وتمّ تطبيق نفس هذه الخطوات الدفاعية بالجزائر وذلك بموجب تقرير أعدّه أحد الضبّاط[39] بالجيش الفرنسي في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الأولى.

نستشفّ كذلك أن ظرفية الحرب الأولى قد كشفت عن تقصير حكومي على مستوى تقديم بعض الخدمات للمستوطنين وبطء في تركيز المرافق الضرورية بمركز الرّوحية الذي يعتبر إنجازه نجاحا للعملية الاستيطانية. كما تجاهلت الإدارة الاستعمارية مطالب مواطنيها ولم تتفاعل معهم عكس ما أُنجز بعديد المراكز الأخرى التي حظيت بعناية رسمية ملحوظة. فلم تُبرمج مثلا زيارة هذا المركز ضمن مسار جولات المقيمين العامين الذين دأبوا على القيام بمثل هذه الزيارات ذات الطّابع التفقدي والميداني بالأرياف (خصوصا بمناطق تركّز المستوطنين) بالرغم من تعددها أو كذلك أي زيارة خاصة من قبل كبار مسؤولي الإدارة الاستعمارية. كما لم نجد بالأرشيفات والدّراسات أي أثر لمرور رؤساء الجمهورية الفرنسية للرّوحية إلى حدود 1930 بالرغم من برمجة بعض الزيارات لمناطق قريبة ومجاورة كما الشأن عند زيارة الرئيس أرمان فاليير في أفريل1911[40] الذّي اطلع

[39] - Archives Nationales d'Outre-mer (ANOM), Fonds Privées 28EVEOM/6: Rapport du Capitaine de La Pardette le 12 juillet 1907.

[40]- الصانعي (عدنان)، **زيارات رؤساء الجمهورية الفرنسية الثالثة إلى البلاد التونسية خلال الفترة الإستعمارية (1903-1931)**. أطروحة دكتوراه في التاريخ المعاصر. كليّة الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس 2017-2018، ص 152.

على أوضاع المستوطنين بمركز المكناسي عند قدومه من صفاقس في اتجاه المتلوّي، كما زار سبيطلة وعديد المدن والقرى الأخرى المجاورة لمركز الروحية.

يأتي هذا "التّجاهل" بالرّغم من إقرار المراقب المدني بمكثر بأهميّة هذا المركز الاستيطاني والذي عرف عمليات تجنيد استجابة لطلب السلطات، إذ لم تتأخّر سلطات الاحتلال عند اندلاع الحرب العالمية الأولى عن إعلام المستوطنين الفرنسيين والمُجنّسين الأوروبيّين المستقرين بتونس بضرورة الاستعداد للتوجّه للجبهات وهو ما حصل بكامل المجال الاستعماري. أبرقت الإدارة العسكرية عبر المراقبة المدنية بمكثر لمستوطني الرّوحية بضرورة التوجه لمراكز تجميعهم قبل نقلهم للجبهات خارج البلاد[41]، وقد شملت عملية التجنيد آنذاك على سبيل الذّكر كل من كليمون بونانفون وابنه بيار والشّقيقيْن فيليب وهنري أودو ونالوا بعض الأوسمة والميداليات العسكرية وأهمها ميدالية معركة فردان (Verdun) إلى جانب أدولف بيلّلو[42]. أرغمت هذه الوضعية الجديدة والاستثنائيّة الإدارة الاستعمارية على اتخاذ اجراءات فورية وعمليّة تضمن السّير العادي للحياة الاقتصادية والاجتماعية داخل المركز ومن بينها[43]:

– تعيين حارسيْن بكل ضيعة استعماريّة جُنّد مالكها.

– ضمان الحراسة الليليّة تحت إشراف أعيان العروش المجاورة للمركز والمدعومين بحرّاس مسلّحين.

– اعتبار المقسم الفلاحي رقم 7 النقطة المركزيّة لهذه الخطّة الأمنيّة وبإمكان السلطات العسكرية استعماله عند الحاجة.

---

[41]- أ. د. نانت. ص 1072. مراسلة المراقب المدني بمكثر للمقيم العام ألابتيت بتاريخ 7 أوت 1914.

[42]- ن. م، ص 961. ملف: سجل التجنيد لسنة 1917

[43]- ن. م، المكتب العسكري: حماية المراكز الاستيطانية، مراسلة المراقب المدني بمكثر للمقيم العام ألابتيت بتاريخ 8 ديسمبر 1914.

– تعيين فرسان من أبناء القبائل القريبة لحراسة المسالك والطّرقات المؤديّة لهذا المركز ويتمّ هذا الإجراء الأخير تحت إشراف شيوخ وأعيان عرش السكارنة وأولاد مولّى في انتظار تخصيص السلطات الاستعمارية لمجموعة من الخيّالة لتولي هذه المهمة.

أما فيما يخص الاستعداد لكل عملية عسكرية طارئة فقد وضعت السّلطات خطّة تتمثّل في توجيه مفرزة من الصبايحيّة للمركز في حال تعرّضه لهجوم وتأمين عمليّة نقل المستوطنين، غير المُجندين، وعائلاتهم إلى مدينة مكثر.

لم تمنع الظرفية الاستثنائية التي رافقت اندلاع الحرب الكبرى ولا عمليات التجنيد التي مسّت سير العملية الاستيطانية بهذا المركز إلى جانب عديد الصعوبات التي ذكرناها، مستوطني الروحية من تحقيق بعض النجاحات التي عكست حسب الإداريين نجاحا للعملية الاستيطانية الفرنسية بهذا المركز[44]. ففي هذا السياق نال المستوطن فكتور اسناك ميدالية فضية بمسابقة فلاحية أُقيمت بمدينة نانسي الفرنسية وأخرى بتونس كما شارك في أكثر من مسابقة. وكانت نفس هذه النجاحات حليفة كليمون بونانفون الذي تحصّل على نيشان افتخار والصنف الأول من وسام الاستحقاق الفلاحي إلى جانب حصده لميدالية برونزية في مسابقة للحبوب[45].

تأتي هذه "الإنجازات" في وقت أشارت فيه الإحصائيات والأرقام الرسمية إلى نمو ملكيات المستوطنين الفرنسيين بأرياف المراقبة المدنية بمكثر حيث ناهزت الألف هكتار في إحصاء 1921[46] الذي أعقب الحرب مباشرة ولا شكّ أنّ هذه الزيادة في المساحات المملوكة للمستوطنين قد سُجّلت بمركز الروحية الذي لاح واعدا قبل الحرب ومحافظا على نفس النسق خلالها. كما عملت السلطات

[44] - Monchicourt (Charles), Rodd Balek: La Tunisie après la guerre…, p 231

[45] -Lambert (Paul), Dictionnaire…, op. cit, p156

[46] - Monchicourt (Charles), Rodd Balek: La Tunisie après la guerre…, p 334

الاستعمارية على الإحاطة بالمستوطنين الفرنسيين وباقي الجاليات الأوروبية بهذه المراقبة المدنية[47] وحتى الأهالي الذين استقروا حول ضيعات المستوطنين من خلال تركيز بعض المنشآت والخدمات الضرورية مثل المدرسة الابتدائية[48] التي من شأنها تقريب مختلف الجاليات وصهرها في بوتقة المشروع الاستعماري من جهة ومحاولة دمج الأهالي من جهة ثانية. كما تخدم مثل هذه الخطوة مشروع الفرنسة الذي عملت السلطات الاستعمارية على تحقيقه من خلال بعض الآليات مثل الزواج المختلط والحصول على الجنسية الفرنسية.

[47]- Ministère des Affaires Etrangères (MAE), Rapport au président de la République sur la situation de la Tunisie en 1919. Tunis. Société Anonyme de l'Imprimerie Rapide. 1920, p101

[48] -Idem, p226.

خاتمة

مثّل المركز الاستيطاني بالروحية نواة "متقدّمة" للاستيطان الفرنسي بأطراف التل التونسي وبمنطقة عرفت لسنوات طويلة بهيمنة الطابع القبلي. ورغم البداية الصعبة التي عرفها المستوطنون هناك، نتيجة تأخر الدعم الرسمي، فإنهم تمكنوا من فرض أنفسهم بفضل تنظّمهم صلب هياكل خاصة بهم مثل نقابة الري بالإضافة إلى الدفع الذي وفّرته غرفة الفلاحة بالشمال وغيرها من الهياكل الاستيطانية المُؤثّرة في المشهد الاستعماري بتونس آنذاك.

لعبت من جانبها بعض الهياكل الاستعمارية دورا مهمّا في تنشيط الاستيطان والتوطين بهذا المركز وقد كانت على رأسها الغرفة الفلاحيّة بالشمال التي تبنّت كل مطالب المستوطنين الفرنسيين بالرّوحية عن طريق المستوطن أكوافيفا. وبتظافر كل هذه الجهود الفردية (دور المستوطنين) والرسمية التي اضطلعت بها الإدارة الفرنسية مُمثّلة في المراقب المدني بمكثر وكذلك الإقامة العامة بتونس إلى جانب إدارة الفلاحة بمختلف أقسامها خصوصا القسم الطوبوغرافي وقسم أملاك الدولة أمكن لمستوطني الروحية فرض أنفسهم كطرف فاعل في المشهد الاستيطاني بالجهة وهو ما خوّل تحوّل الروحية إلى أهم مركز بأرياف هذه المراقبة بعد أن كان رقعة جغرافية منفّرة ببلاد البارود.